قراءة في ديوان السباعيات للدكتور عيسى ألبي أبو بكر

تحميل مجاني

البيانات الأساسية

المؤلف: جمبا، مشهود محمود

الناشر: رابطة الأدب الإسلامي العالمية

المصادر: قاعدة بيانات الملخصات العلميه

المدينة النشر: الرياض، السعودية :

تاريخ النشر: 2017

اللغة: العربية

نوع المادة: مقالة

عدد الصفحات: 8 ص.

قراءة في ديوان السباعيات للدكتور عيسى ألبي أبي بكر

مقدمة

الأدب فن إنساني رفيع، يصوّر الكون وما ينطوي عليه من الكائنات الحية والميتة تصويرا يتفاعل مع أحداث الزمن، ويتأثر بحوادثه، فهو كتاب تتلو الأجيال المتعاقبة على صفحاته كل صغير وكبير مما يستجد في عصر الأديب وبيئته. والأديب الناجح من يحقق عمله هذه الغاية السامية ويتجاوب مع متطلبات الزمان والمكان. والشعراء قديمهم وحديثهم في فلك يسبحون، وفي فضاء خيالي يطيرون؛ يتبادلون الآراء، ويتناوبون الأفكار ويحاكي بعضهم بعضا، وإن كانوا ينهلون من منابع مختلفة، ويستمدون من مصادر متباينة؛ هذا يمدّه شيطانه، وذلك يلهمه إيمانه وقرآنه.

الأديب بين المحاكاة والتجديد:

المحاكاة-كما يقول ابن جني ومن لف لفه من فقهاء اللغة- قديمة قدم الإنسان، يقول: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، ونهيق الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ورزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل".[1] وذهب أفلاطون قبله المذهب نفسه؛ فالشعر عنده ضرب من ضروب المحاكاة أو التقليد، والشاعر مقلد، ولكنه لا يلد الحقائق وحدها، بل يقلد ظواهر الحياة الجارية.[2]

فإذا كانت المحاكاة تمثل طورا أساسيا في حياة الإنسان فإن حب التجديد لا يقل عنها خطورة، إذ جُبل الإنسان عليه. لقد ثار شعراء صدر الإسلام على الشعر الجاهلي، وذهبوا بالشعر مذهب إسلاميا، وحاول الشعر في العصر الأموي أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب، بل فيهما وفي الموضوع أيضا، وكان تجدده ملائما كل الملاءمة لتجدد الحياة. وفي العصر العباسي سلك الشعراء طريقا تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية.[3]فالمحاكاة والتجديد إذن غريزتان قويتان في الإنسان، وظاهرتان طبيعيتان تتحكمان في الأديب ونتاجه، وقد خضع لهما الشعراء في كافة البلاد على مر العصور.

القصيدة العربية والفنون الشعرية:

ظلت العرب قرونا متعددة لا تعرف من الشعر إلا العمودي، وقد استلهموا فكرة العمود وتركيب أوزان شعرهم من وضع بيوتهم. ويقول حازم القرطاجني في "منهاج البلغاء": "ولما قصدوا أن يجعلوا هيئات ترتيب الأقاويل الشعرية ونظام أوزانها متنزلا في إدراك السمع منزلة وضع البيوت وترتيباتها في إدراك البصر تأملوا البيوت فوجدوا لهاكسورا، وأركانا، وأقطارا، وأعمدة، وأسبابا، وأوتادا... وجعلوا الوضع الذي يبنى عليه منتهى الشطر وينقسم البيت عنده نصفين بمنزلة عمود البيت الموضوع وسطه.[4]

والقصيدة محصورة في ستة عشر بحرا وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه الأخفش، ولأبيات الشعر العربي ألقاب من حيث العدد؛ فالبيت الوحيد الذي لا ثاني له "يتيم"، والبيتان اللذان لا ثالث لهما "تُنفة"، و"القطعة" ما زاد على بيتين إلى الستة، و"القصيدة" من سبعة أبيات. يقول ابن رشيق: "إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب".[5] وقد جعل الشعراء العرب والعجم "القصيدة" غايتهم الأسمى، على حساب الألقاب الأخرى.

ولما اتسعت الأصقاع الإسلامية شرقا وغرب اقتضت الضرورة أن يتجاوب الشعر العربي مع البيئات في بلاد فارس (بآسيا)، والأندلس (بأوربا)، والمغرب العربي وغربي أفريقيا (بأفريقيا)، فظهرت فنون شعرية جديدة مثل: المواليات، وكان وكان، والقوما، والدّوبيت، والسلسلة، والزّجل، والموشح[6]، وغيرها. وظهرت - علاوة على ذلك- أشعار توحي أسماؤها بعدد أبياتها؛ ظهرت في الأدب الفارسي"المَثْنَوِي" نسبة إلى مثنى، وهو منظومة يتفق كل شطرين منها في الروي[7]، و"الرباعي" المبني على أربعة أبيات، وظهر "المسدس" ذو السطور الستة لمراثي شهداء كربلاء في اللغتين الأردية والتركية[8]، وفي القرن الثاني عشر الميلادي ظهر "التخميس" في الأندلس على يد أبي بكر بن مهيب الذي خمس قصيدة لأبي زيد الفازازي[9]. فهكذا تلون الشعر العربي وتطبع بطبائع مختلفة في البيئات الإسلامية بأطرافها المترامية.

ويذكر أن معظم انتاجات الشعراء النيجيريين حتى أواسط القرن العشرين الميلادي كانت محاكاة للشعر العربي القديم، فقد كانوا- على حدّ تعبير الدكتور كمال بدوي- يقصدون إلى المحاكاة قصدا تشبها بالشعراء الإسلاميين، ويريدون أن يتقمصوا روح كل ما يمت إلى الإسلام بصلة[10]، بيد أن محاكاتهم ليست بدعة، فما من شاعر قديم أو حديث إلا وتأثر - على الأقل- في بداية نظمه- بالشعر التقليدي.[11]

وفي أواسط القرن العشرين الميلادي أخذت طلائع النهضة الحديثة تظهر على أيدي الشيخ الوزير جنيد بن محمد البخاري، والقاضي عمر إبراهيم وغيرهما ممن اطلعوا على النهضة الشعرية الحديثة في بلاد العرب والغرب، لقد تحرر هؤلاء وأبدعوا في أفكارهم ومعانيهم وأخيلتهم، وحذا حذوهم كوكبة من الشعراء الشباب أمثال الدكتور هارون الرشيد يوسف، والدكتور عيسى ألبي أبوبكر، وغيرهم كثيرون، وكلهم لم يخرجوا على نظام القصيدة العربية القديمة شكلا ومضمونا.

بين الرباعية والسباعية:

الرباعية أبيات شعرية تتكون كل مقطوعة منها من أربعة أشطر يتفق فيها الأول والثاني والرابع في الروي، وينفرد الثالث غالبا، وهو ضرب شائع في الأدب الفارسي، وقد انتقل إلى العربية باسم الدُّوبَيت.[12] ويكتنف تاريخ نشأتها شيء من الغموض، ولعل الأقرب إلى الصواب ما ذكره أبو الحسن علي الباخرزي (المقتول 1075م/467هـ) في كتابه "دمية القصر" وهو يعيد تاريخها إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وتتزامن هذه الفترة من ظهور الدوبيت عند العرب.[13]

وأشهر الرباعيات ما ينسب إلى الشاعر الفيلسوف الرياضي الفارسي غياث الدين أبي الفتح عمر بن إبراهيم الخيام (1050-1123م) الذي يبلغ ما ينسب إليه 1200 رباعية، وإن كان النقاد يشكون في هذه النسبة، أما التي لا ريب في نسبتها فلا تزيد على إحدى عشرة، وكلها بالفارسية.[14] لقد اشتهر عمر الخيام ورباعياته في الغرب حتى ظهر أدباء عرفوا بـ"العُمَريين" صرفوا هممهم إلى دراسة فلسفته وشعره، وظهر في لندن ناد موسوم بالنادي العمري.[15] كان الشاعر الإنجليزي إدوارد فتزجرلدEdward Fitzgeraldمغرما برباعيات الخيام، فاستوحى روحه ونظم رباعياته في الإنجليزية فخلد اسمه في تاريخ الآداب العربية، وطارت شهرته في إنكلترا، وأمريكا، وأوروبا.[16]

وكان لرباعيات الخيام صدى في قلب الشاعر وديع البستاني كذلك فنظمها شعرا عربيا في "سباعيات" نقلا عن الترجمات الإنجليزية والفرنسيةالمتعددة، ثم قال: "أريد بالسباعيات هذين الموشحين اللذين عنيت بتضمينهما روح الخيام أخذا عن رباعياته، وعساني لم أظلم تلك الروح بنقلها من بيت فارسي إلى بيت عربي، بل من رباعيات إلى سباعيات.[17] ومن السباعيات قول البستاني على لسان الخيام:

ربّ رُحْماك إن أردتَ الحسابا
إنما قلتُ ما حسبتُ صوابا
أفألقى على يديك العقابا؟
بين من صوّروا الوجودَ سَرابا
أن أجْلوكَ في الكؤوس حَبابا
أنا شيخ التوحيد بين النّدامَى
لا أثني إن عدّدوا الأربابا[18]

السباعية في بيئة نيجيريا:

يشهد الأدب العربي النيجيري المعاصر ازدهارا لم يعهده من قبل، لأنه إلى جانب قرض الشعر وفن الكتابة الموروثين ظهر فن المسرحية، والرواية، والسيرة الذاتية، وفنون أدبية أخرى، وقد سوغ ذلك اتساع قنوات الاتصال ببلاد العرب عبر التكنولوجيا الإعلامية الحديثة وغيرها من وسائل الاتصال، ويعد ظهور السباعية على مسرح الأدب في نيجيريا امتدادا لموجة تلك النضهة الأدبية، والديوان الموسوم "السباعيات" للشاعر الإسلامي الكبير عيسى ألبي أبي بكر باكورة السباعيات في الشعر العربي في هذه المنطقة، وتلك السباعية موضع هذه الدراسة المتواضعة.

موجز ترجمة الشاعر:

ولد الدكتور عيسى ألبي أبو بكر بمدينة كُمَاسِي الغانوية لأبوين إلوريين عام 1953م. تعلم القرآن الكريم ومبادئ الدراسات العربية والإسلامية على أيدي مشائخ إلورن، وحصل على الشهادتين الإعدادية والتوجيهية بمركز التعليم العربي والإسلامي، أغيغي، نيجيريا. وحصل على شهادتي الدبلوم والماجستير في اللغة العربية بجامعة بايرو بكنو، وعلى الليسانس والدكتوراه في اللغة العربية من جامعة إلورن، والدبلوم العالي في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من جامعة الملك سعود بالرياض.

أوفده المرحوم الشيخ آدم عبد الله الإلوري إلى مدرسة دار العلوم لجبهة العلماء والأئمة بمدينة إلورن حيث عمل ردحا من الزمن مدرسا وناظرا. وبين 1984-1994 عمل محاضرا في اللغة العربية وآدابها بجامعة عثمان بن فودي صكتو، ومن 1994 إلى يومنا هذا بجامعة إلورن. وقضى سنة سبتية بجامعةليغون، غانا، وأخرى بجامعة أبوجا نيجيريا محاضرا في اللغة العربية.

يعد الدكتور عيسى ألبي أبوبكر فحلا من فحول الشعر العربي في نيجيريا، وفارسا من فرسانه المتحكمين فيه. قال الشعر مذ كان يافعا، وظل مواظبا على قوله وتجويده وتصقيله حتى قويت شوكته وتفجرت ينابيعه، فامتاز شعره بحسن الديباجة، وعلو البلاغة، وقوة المخيلة، والمقدرة الإبداعية النادرة، والوحدة العضوية والموضوعية. وقد نال بالشعر جوائز وديباشينكثيرة، أعلاها الجائزة الأولى في المسابقة الشعرية التي نظمتها جامعة الملك سعود بالرياض ضمن فعاليات أسبوع التوعية حول مضار التدخين عام 1991م، ووسام التقدير الذي قلدته إياه شعبة اللغة العربية بجامعة ولاية كوارا عام 2014م. وقد نشرت قصائده مجلات علميةكثيرة في نيجيريا وبلاد العرب.

عيسى الشاعر وعوامل شاعريته:

هناك عوامل كثيرة ولّدت شاعرية عيسى، وسنتعرض لاثنين منها، هما العامل البيئي والعامل الشخصي. أما البيئي فقد تجسد في ثلاث بيئات كان لها أثر قوي في الشاعر على نحو ما يلي: بيئة مدرسته بالمركز، أغيغي، وبيئة جامعة عثمان بن فودي بصكتو، وبيئة بلده إلورن. قضى الشاعر بالمركز ما يقرب من عقد من الزمن (1965-1971/1976-1979) في كنف شيخه المرحوم آدم عبد الله الإلوري الذي لقنه العلوم العربية والإسلامية، وخرجه شاعرا، والمركز بيئة مهيأة لتنافس الشعراء، عامرة بالشباب النابغين النشطين المتأثرين بتوجيهالشيخ الإلوري وأسلوبه المتميز في إعداد الشعراء،[19] ثم ساقه القدر المحتوم إلى جامعة صكتو (جامعة عثمان بن فودي حاليا) بنيجيريا حيث عمل لعشر سنين محاضرا بقسم الدراسات العربية احتك خلالها بأجلة الأدباء أرباب البيان الذين نقدوا شعره وقوّموه، ثم عاد وضرب أطنابه على وطنه إلورن عام 1994م وهي زاخرة بتراث الآباء والأجداد بناة الحضارة الإسلامية، وعامرة بالشباب المتحمسين للعربية المتفانين في حماية تراثها، فوجد من هنا وهناك دوافع توهج منها شاعريته، وأسعفته على الانتاج المستمر، والتركيز والالتزام في الاتجاه.

وأما العامل الشخصي فيتمثل في الموهبة الفذة والملكة الشعرية الكبيرة التي منح الشاعر إياها، إضافة إلى عكوفه على دواوين الشعراء القدامى والمحدثين، وحظفه لكثير من أشعارهم، وقديما قالت العرب: "احفظ تقل، إن الكلام من الكلام". وفي الديوان أدلةكثيرة على أنه اطلع على أعمال البحتري، والمتنبي، والحريري، والبارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وأبي القاسم الشابي، وطه حسين، وخليل مطران، وفدوى طوقان، وأحمد الفيتوري، ولفيف من شعراء السعودية المعاصرين. ويتمثل العامل أيضا في سعة ثقافته التي اكتسبها عن طريق الاطلاع المكثف على الثقافات العالمية المتنوعة، فتجده يتكلم حول الفيتو "حق النقض" في مجلس الأمم المتحدة، ومعتقل جورج بوش في غوانتانمو، ومؤتمر دول الكومنولث، والعولمة"...إلخ. فهذه العوامل مجتمعة هي التي ذكّت جذوة الشاعر، وأشعلت جمرته، وجعلت منه فحلا عملاقا يتربع على أريكة الشعر العربي، لا في نيجيريا فحسب، بل في كافة إفريقيا جنوب الصحراء.

من الظواهر الفنية في سباعيات عيسى:

لا يخامرنا شك في أن الشاعر قد اطلع على نسخة من السباعيات العربية، لكن النظرة الحصيفة تثبت أن سباعياته تمتاز عن غيرها من حيث الشكل، والمضمون، وطريقة العرض، ومن حيث إنها بنات أفكاره فكرة وأسلوبا، على خلاف البستاني وغيره من العمريين الذين يعيدون صياغة أفكار الخيام بأساليبهم الخاصة. وفي السطور التاليةسوف نتناول بعض الجوانب الفنية في هذا الديوان، ولضيق المقام، ليس بوسعنا سوى أن نمر على ذلك مر الكرام من ناحيتين:

أولا- من الناحية الموضوعية:

تحتوي هذه المجموعة على مائة وسبعين (170) سباعية سجل فيها الشاعر مشاعره وخواطره الشخصية، وانطباعاته حول قضايا الساعة الوطنية والعالمية زهاء عقد من الزمن (1994-2005)، أمسك خلاله عن الإنتاج سبع سنين (1996-2002)، وقد تناول حوالي تسعة عشر موضوعا يتصدرها الوصف بنيف وخمسين سباعية، يليه الهجاء والذم، والشكوى، والمدح بحوالي خمس عشرة لكل منها، فحديث الحب والغرام باثنتي عشرة، وذكريات الماضي بسبع، والفخر والاعتزاز بست، والباقية تتناول النصيحة، والحنين، وتمجيد الله وتوحيده، والحكمة، والرثاء، والشعر الإنساني، والقضايا الوطنية، والترحيب، والتصوف، والفلسفة.

واستثراء الوصف بأوفر نصيب مصداق لقول ابن رشيق: "إن الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف"[20]، وقول طه حسين: "من الجائز أن يقال إن الشعر كله وصف، فالمدح وصف محاسن الناس، والهجاء وصف مساوئهم، والنسيب وصف جمال المرأة وما يثيره في النفس من عاطفة، وهلم جرا".[21] ونظرة تأملية في الوصف خلال الديوان تكشف عما يتمتع به الشاعر من قدرة عالية على البيان والتوضيح، إذ معظمه يدور حول المعنويات والروحيات التي يتطلب التعبير عنها قدرا كبيرا من الجهد والطاقة البيانية، وذلك مثل الروح، والأمنية، والعافية، والعقل، والحب، وتقلبات أحوال الدهر، والحنين، وغطرسة اليهود، وشهر رمضان، وعظمة ليلة القدر، وأقله يدورحول الماديات والطبيعيات المرئية مثل الهاتف المحمول، والكتاب، والقمر، والمطر، والمدّ البحري (تسونامي)، فغلبة الوصف الوجداني على النقلي عند الشاعر آية ناطقة بعلوّ كعبه في دنيا الشعر، حيث نجح في نقل المعاني من حواسه إلى نفسه وضميره أولا، ثم إلى القارئ والمستمع، متخطيا بها حدود الظاهرة إلى ما ورائها.

وشكوى الشاعر إما من أحوال بلاده، أو أحوال البلاد الإسلامية، أو من حكام نيجيريا وأفريقيا، أو من أشياء أخرى كألم الفراق والشيوخة، فما هو بالأناني الذي يشكو من حرمان ذاتي أو لتحقيق أطماع شخصية، بل لسان الشعب والمعذبين في الأرض، وصوت الإسلام العالي الشاكي من سوء أحواله. أما مدحه فلا يبذله رخيصا لذي مال أو جاه، بل يهديه للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، ومن يستحقونه من الشخصيات العظام، والعلماء الكرام ممن خلّد التاريخ أسماءهم وآثارهم أمثال الخليفة عمر الفاروق، والحريري، والشيخ آدم الإلوري، والشيخ يوسف القرضاوي، والشاعر محمد الفيتوري، والفنانة أم كلثوم.

وهجاء الشاعر وذمه سيف ذو حدّ واحد بتّارٌ، موجّه صوب الإرهابيين، والعولمة، واللواط، والعالين في الأرض علوا، وغطرسة اليهود وأمريكا، والأعمال الإجرامية عامة.

أما غرامه فمحض عفيفي ترتفع عاطفته فيه إلى قمة الصفاء والنبل، فما هو من دافع شهوة أو غريزة جنسية، بل نابع من قلب مؤمن طاهر. ومثال حي لذلك السباعية رقم 7:

غادة الحي قد أثرت	**بحديث مهذّب مسحور**
شعوري	**ـت لي الوجد في قرار الصدور**
فذة أنت في الصفاء فأذكيـ	**بقليل لديّ كالموفور**
أنت ريحانة العيون فجودي	**ذلّ في الحب كالفتى**
كيف لا ترحمين خفقة	**المأمور**
قلب	**قوة المنع من ذوات الخدور؟**
إن تقوى تأصلت هل لديها	**وذهولي أمام خلق**
لا تلومي ضراعتي وخشوعي	**وقور**
فعلى الشاعر المهذب أن	**ـعى برغم الرقيب خلف البدور**
يسـ	

وأما فخره فليس بمال أو جاه أو حسب أو نسب أو مكانة اجتماعية، بل بفنه الرفيع وشعره الجميل، فقد قال:

حيُّوا جهود مجيدٍ للقريض رأى	**بين المجدِّين عرشَ الشعر فاستلما**
لا ينشر الشعر إلا بعد غربلة	**وشعره يحتوي الآداب والحِكَما**
لا يطلب المجدَ إلا في مواطنه	**وقد تخيّر أخلاقَ العُلى شِيما**

ثم قال:

شعري طريقي إلى العلياء يرفعني	**به أنسّق ما يهدَى من الحكم**
هديّةُ الله من يحفى بها بطل	**يصول منتصرا في حَلْبة الكلم**

يا ناكرا هبتي في الشعر يحسدني لا يخلق الله أقواما بلا عَلَم

وكثيرا ما نرى الشاعر يتدفق من نفس إنسانية سمحة، فيجود للمنكوبين والمعذبين دموعا من قلمه تجري، ودماء من مقلتيه تسيل، وهو يتخطى في ذلك الحدود الجغرافية والعِرقية، والفوارق العقدية. فهل يثير شفقة المرء وتحنانه أكثر من قوله في طفلةمسيحية تدعى بَوْسَي غرس مجهولون في يافوخها المسمار وهجروها:

لو دروا ما غرّزوا في رأسها لتمنوا جرعة من بؤسها
طفلة المجهول في أوساطنا سئمت مظلومة من نفسها
أيّ ذنب قد جنته يا ترى فأرادوا رميها في رمسها؟
هجروها وتمنوا موتها فوجدنا سعدها في نحسها

لقد تناول الشاعر أغراض الشعر الموروثة وزاد عليها وتعرض لقضايا وطنية مثل أزمة 12 من يونيو، وحوادث يَلْوَ بولاية بلاتو، ولقضايا الساعة مثل الإرهاب، والعولمة، والحروب والمجازر الأفريقية المتعددة، وقضايا إسلامية مثل الحجاب، والتصوف، والمسجد والأقصى، وقضايا فكرية من فلسفة وحكمة، يضع في كل ذلك سباعياته طواعية وعن عفو خاطر، مما يدل على أنه شاعر وجداني يتفاعل مع الأحداث، لا شاعر المناسبات الذي يترقب فرص المناسبات، حتى إذا سنحت جادت قريحته، وإلا بخلت.

ثانيا- من الناحية الفنية:

لا تعد السباعيات علامة ضعف الشاعر أو قصر نفسه، بل أمارة قوته ونضجه، إذ استطاع أن يصوغ في غضون سبعة أبيات ليس إلا، أفكارا ومشاعر قد يعجز شاعر آخر عن استفراغها في عشرة أبيات أو أكثر، علما بأن الموقف الذي يستفز الشاعر لأن يؤلف قصيدته-كما قال طه حسين- موقف له أهميته وخطره، فقلما يكفي للتعبير عنه أبيات لا تتجاوز العشرة أو تتجاوزها قليلا.

والنظرة الحصيفة في هذا الديوان تكشف عن تجارب ملؤها أحداث وجدانية وعقلية؛ تجارب نابضة بالحياة صاغها الشاعر من العقل والنفس معا في قصائد كاملة النضج، واضحة المعالم، متميزة الخصائص، ودبّجها ديباجة عربية خالصة تترنح لها الأعطاف حتى ليسأل القارئ نفسه أأعجمي هو أم عربي؟! وفي السطور التالية سنوجز الحديث في طائفة من التجربة الشعرية، والقيم الشعورية والتعبيرية في الديوان.

تكمن التجربة الشعرية في تماسك هيكل القصيدة وتناسق أبياتها تناسقا يشعرنا بأننا بصدد حدث وجداني واحد يرويهلنا الشاعر في وتيرة موسيقية واحدة منسجمة من أولها إلى آخرها، لا أمام أبيات يستقل كل منها بشعوره وإحساسه، فإذا ضربنا السباعية رقم 115 مثلا كما يلي:

قد ملك المالُ قلوبَ الورى وعلّم الخائفَ فنَّ السُّرى
وأرغم العائفَ ذوقَ الأذى وأسمع الفاضلَ ما أنكرا فلم
وجن التاجرَ لمعانُه يجد في الليل طَعمَ الكَرى
يجعل من يملكه سيدالحبه وكان عبدا عائلا أفقرا
ينسى الفتى أفقه لأجله أصْحَرَ أو أبحرا
يجنّد الثوّارَ أن يعتدوا على رئيس دون أن يغدرا
يحوِّل العابدَ إن ناله إلى شقيّ دون أن يشعرا

رأينا لوحة فنية كاملة للمال وهو يملك، ويُرغِم، ويجنّن، ويجنّد، ويحول، فأحاسيس الشاعر ومشاعره تجاه المال متناسقة ومتسلسلة من البداية إلى النهاية؛ فمن يملك فإن له حق الإرغام، والإسماع، والتجنيد، والتحويل، فهذا منتهى الوحدة العضوية، وغاية الوحدة الموضوعية، ولا شك أن قلة عدد الأبيات قد أسعفت إسعافا كبيرا على إحكام السيطرة على القصيدة ودقة بناء هيكلها وفقا لهوى الشاعر.

أما القيم الشعورية في الديوان فتتميز بطابع شخصية الشاعر، وهو ينقل إلينا شعوره كما يرد عليه عفوا دونما أي تكلّف، ويصور علاقته الشخصية مع العالم الواسع والكون الفسيح، ومع الأحداث والحوادث المستجدة في مختلف

الأزمنة، وهذا الشعور متعدد تعدد الأحداث؛ هادئ لطيف إذا وصف، وثائر متموج إذا هجا أو شكا، ولذيذ مليح إذا عشق، وإنساني شفوق إذا تعرض لقضية إنسانية، وخير نموذج لذلك السباعية رقم 19 "لا تقلقوا المريخ":

إستعمروا الأرض فعم الفسادْ　　　واعتزموا المريخَ بعد العنادْ
ماذا يريد باحث ضائع　　　في كوكب يهدأ فيه الجسادْ
ماذا أفادوا الأرضَ من حكمهم　　　سوى دمار مرعب للعبادْ
الأرض مثواهم فما غرّهم　　　بالعالَمِ العُلْوي بعد اللدادْ

فعلى الرغم من أن نزول الإنسان على سطح القمر وشموس أخرى يعد إنجازا علميا يعود بالخير على البشرية إلا أن الشاعر نجح في إقناعنا بأنه مجرد مغامرة لا طائل وراءها. وإذا قرأنا السباعية رقم 73 "دُمّل الإست" وجدنا أنفسنا مضطرين إلى مشاطرة الشاعر ألمه ووجعه حين أصابه دمل بإسته (بواسين) نغّص عليه الحياة، وفيها يقول:

منع الأكلَ والمنامَ فأصبحـ ** ـتُ صبيا مُعوِّلا بالشكايا

إلى أن قال:

لا جُثُوٌّ لا جِلْسةَ لا قيام دمَّل　　　لا كلام حتى لردِّ التحايا
نغص الحياةَ عليّ　　　هو كافٍ لمحو كل الخطايا

وأما القيم التعبيرية فأول ما يستوقف النظر منها تخير الشاعر للألفاظ الموحية المتناغمة مع انفعاله، ونضرب لذلك مثلا السباعيتين الثانية عشرة "الوفاء" والثالثة عشر "الشِّرار":
???

....　　　....................

إن الشرار وإن طال امتطاؤهمُ　　　متون شرّ وتضليل وعصيانٍ
أو شوّهوا الخير تشويها بلا مهل　　　أو بدلّوه بلا رفق وإيمانٍ
وأدخلوا الناس في ظلماتهم طربا　　　وضرموهم كما شاءوا بنيرانٍ
وصيّروهم حيارى لا ترى أحداا　　　إلا كشارب خمر جدّ سكرانٍا

فنجد الأولى محفوفة بألفاظ مثل: أحسن، وإيمان، ووفاء، وسلامة، وعلاء، والثناء، وحبا، وأمناء، وغيرها من الكلمات الشريفة الخفيفة على اللسانالثقيلة في الميزان، التي تناسب مقام الوفاء ودرجته. أما الأخيرة فملؤها: الشرار، وشر، وتضليل، والتشويه، وضرموهم، وعصيان، ونيران، وسكران إلخ، ولا شك أن ثقل الألفاظ في النطقوفظاعتها في المعنى مما يناسب طبائع الشرار، أضف إلى ذلك ما يوحيه إلينا حركة روي السباعية الأولى (الضمة التي تدل على الرفع) من العلو والرفعة، وروي الأخيرة (الكسر الذي يدل على الجر) من الكسر والسقوط والسفلة، فالتجانس بين اللفظ والمعنى، وما يصاحبه من الموسيقى الداخلية التي تؤثر في شعور السامع والقارئ من أقوى مزايا هذه السباعيات وأجل سماتها الفنية.

خيال الشاعر في القصائد:

ومن أبرز خصائص الديوان أيضا ما وشَّى به الشاعرتعابيره من الخيال النابض المبدع- وقد رزق منه الكثير- جانحا إلى التشخيص، والتجسيد، والتصوير بالبصر والسمع واللمس، وما يصوغه بضروب من التشابيه والمجازات والاستعارات، فنراه مثلا يثب بخياله وثبة تتراءى في مثل وصف العجوز (رقم 20):

هَرَمٌ يداخلنا ويُضْعِفُ خَلْسةَ　　　أقوى الرجالِ ويُوهن الفُولاذا
ويُحيل أظهرَنا عَراجينَ الفَلا　　　لا تستطيع من الرياح ملاذا
ضَيفٌ يُلمّ بنا ونكره وجهَه　　　أنعوذُ من هذا النزيل عِياذا

في مثل وصف الهاتف المحمول (رق 85):

آلةٌ مثل عُلْبةِ الكِبريتِ　　　صوتُها مثلُ رَنّةِ العفريتِ

هاتف العصر ناعمٌ وجميلٌ خفَّ حتى حكى ذَبالة زيت
قرَّبَ البعدَ للأنام ويأتيـ ـك بصوت ممن تُحب حَميتِا

ومن الرؤى الخيالية ما ورد في "يا قلب" (السباعية رقم 19):
وإن الحزن كالليل الـ ـبهيم تراه قد وقبا
إذا ما جاء نورالصبـ ـح يُلْفى الليلُ قد وثبا

وم جاء في وصف حوادث 12 من يونيو 1993 في نيجيريا (السباعية رقم 44):
ورموه في جب المنية بعدما رفعوه حَسْبَ مكانه محمودا
في يونيو انتخبوا رئيسا عرشها قعر السجون وكبّلوه قيودا

وخلب مظهر السواد خيال الشاعر فصوّره تاجا (السباعية رقم 53):

تاجٌ على رأس الشباب إذا اختفى ** جاء البياض كداخل محظور

الاقتباس في الديوان:

ومما ينفث الروح في هذه القصائد كثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كالذي ورد في (السباعية رقم 98):

يفيض حيث أفاض الناسُ في وَلَهٍ ** قد فاز من شفه بالحب مغناكا

وفي السباعية (رقم 109):

التفت الساق بالسا ** ق في اللفظ من راق

وفي السباعية (رقم 167):

تَلَّ بالعزم للجبين كبيرا ** نجلَه يبتغي به الدرجات

ويمثل هذا إحدى طرق الشاعر للتأثير في النفوس، علاوة على استخدام الصيغة الطلبية خاصة الاستفهام المبعثر في ثمانين قصيدة من الديوان، وكذلك قوة المحجة وبراعة الاستهلال الواضحتان في الديوان وضوح الشمس في رابعة النهار.

الخاتمة

هذا الديوان عصارةأفكار شاعر علّمته الحوادث، وحنّكته التجارب، واطلع على العلوم والمعارف، والحضارات المختلفة، والطبائع البشرية المتباينة، وصهرها جميعا في بوتقة شعر جميل ذي معان سامية، وأخيلة سامقة وقواف مرقصة، إنه عمل حافل بحقائق الكون وأسراره، وأحداث الدهر وحوادثه، وبعلاقات الناس مع خالقهم، ثم مع بعضهم بعضا، نظم الشاعر كل ذلك شعرا سباعيا كما وقع في نفسه، وخطر بباله، وكأنه من مهج نفسه.لقد قلّد الشاعر وجدّد في آن واحد، ولم يناقض نفسه قط، بل جعل الثاني وليد الأول، فليس تقليده تقليد الأعمى الهائم الضليل، بل تقليد الحاذق البصير المستنير. أما تجديده فكامن في الشكل، والمضمون، والأسلوب على النحو الذي نلمسه في القصائد.

وبهذا الإبداع خطى الشاعر بالشعر العربي خطوة واسعة إلى الأمام، وفتح صفحة جديدة في سفر الأدب العربي في هذه البلاد ذات تاريخ إسلامي تليد مجيد. وهذا العمل الجبار الذي نعدّه تحفة إلهية يمثل الفكر النيجيري الجديد، ومستوى الثقافة لدى الجيل الجديد من شعراء المسلمين الشباب، وهو يشهد أن صاحبه أحد حاملي لواء الشعر العربي المعاصر، وأئمته في أفريقيا جنوب الصحراء، وهو خليق بأن يكون موضع اهتمام الباحثين من العرب والعجم، دراسة وترجمة.

الهوامش:

1- أبو الفتح بن جني: **الخصائص** (تحقيق عبد الحميد بن محمد) القاهرة، المكتبة التوفيقية، (ج1) (بدون تاريخ)، ص: 46-47.
2- بدوي طبانة (الدكتور): **النقد الأدبي عند اليونان**، بيروت، لبنان، دار الثقافة، 1406هـ/1986م، ص: 52.
3- طه حسين (الدكتور): **حديث الأربعاء** (ج2)، القاهرة، دار المعارف، 1968م، ص: 14-19 بتصرف يسير).
4- السعيد السيد عبادة (الدكتور): **نصوص من نقد أبي العلاء**، القاهرة، مطبعة الحسين الإسلامية، 1977، ص: 167.
5- غالب بن محمد محمود الشاويش (الدكتور):**الكافي في علم العروض والقوافي**، الرياض، مطابع أضواء البيان، 1417هـ/1996م، ص: 39.
6- للمزيد راجع: **الشافي في العروض والقوافي**، للدكتور هاشم صالح مناع، بيروت، دار الفكر العربي، (ط3)، 1414هـ/1995م، ص: 295-298، ثم راجع: **المستطرف في كل فن مستظرف**، لشهاب الدين محمد الأبشيهي، القاهرة، دار المنار، (ط1)، 2004م، ص:435-491، (بتصرف يسير).
7- محمد عبد الرحمن شعيب (الدكتور): **في الأدب المقارن، أصوله وتياراته**، المملكة الليبية، 1388هـ/1968م، ص 166.
8- *The New Encyclopedia Britannica*, Vol. 22, Chicago, USA (1988) p. 48.
9- Rasheed A. Raji: “The Ishriniyat: Its Origin and Importance in Nigeria” in *NATAIS*, Vol. II, No 4, Dec. 1983, p. 27.
10- محمد عبد الرحمن شعيب (الدكتور): المرجع السابق، ص: 166، وانظر أيضا: *The New Encyclopedia Britannica*, Vol. 22, p. 55.
1- **رباعيات عمر الخيام** (تعريب وديع البستاني)، دار المعارف، ص: 29.2- المرجع نفسه، في هامش صفحة 11.3- المرجع نفسه، ص: 31.4- المرجع نفسه، ص: 36.5- المرجع نفسه، ص:41.
6- (الدكتور) كمال بدري: "الشعر العربي في نيجيريا في القرنين التاسع عشر والعشرين"، في: **مجلة دراسات عربية**، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو-كنو،